Studies In Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

فِي رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

THE RABBI SACKS LEGACY

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation/vayechi/on-not-predicting-the-future/

"ڤَيحي" هو النصّ الأسبوعي الثاني عشر والأخير من كتاب "بريشِيت"(سِفر التكوين)، ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية الثامنة والعشرين من المَقطع السابع والأربعين وينتهي بالآية السادسة والعشرين من المقطع الخمسين.

عَن عَدَمِ التَّنَبؤِ بالمُسْتَقْبَلِ

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

يعقوڤ/يَعقوب في هذهِ اللحظةِ من حياته ماكثٌ على فِراش الموتِ يلفظُ أنفاسهُ الأخيرة، لهذا جمع أبناءهُ حتى يبارِكهُم قبل أن يتَوَفّاهُ الله عز وجل، لكن النصّ التوراتي يبدأ الحديث عن هذا الموقفِ بطريقة غريبة وشبه متكررة، فتقول الآيتان الأولى والثانية من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين: **"ثُمّ دعا يعقوڤ بَنيه وقال اجتَمعوا حتى أُخبِركُم بما يوافيكُم آخر الأيّام. اجتَمِعوا واسمَعوا ذلِكَ يا بَني يعقوڤ، واقبَلوا من يِسرائيلَ أبيكُم".**

يبدو وكأن الآيتين تُكرّران الأمرَ نفسه مرّتين دون وُجودِ فارقٍ يُذكر بينهما، ففي العِبارة الأولى يُشيرُه يعقوڤ **"بما يوافيكُم آخر الأيّام"** (آخر الأيام يَقصدُ بها نهاية الزّمان)، لكن هذا غير موجود في العبارة الثانية. وفي هذا السياق يوضّح الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) استناداً إلى التّلمود[1]* بأن "يعقوڤ أراد أن يُبيّن لأبنائه ما سيحلّ بهِم في المُستقبل، لكن خلال محاولته تلكَ لم يكن هنالك أيَّ حُضورٍ إلهي يُمُدّه بما يَقول". بالتالي حاولَ يعقوڤ استِقراءَ المُستقبل لكنه لم ينجَح في ذلك.

وهذه ليسَت مجرد جزئية عابِرة في التّوراة، بل تُمثّل جُزءاً من الأساسيّات التي تقومُ عليها الروحانيّة اليهودية، فنحنُ اليهودُ نؤمنُ بأننا كبشرٍ عاجزون عن استِقراء المُستقبل والتنبؤ به، إلا أننا نحن مَن **نصنعُ المُستقبلَ** من خِلال اختياراتنا، فالقَدَرُ

***مُلاحظة توضيحية من المُترجم:** التَّلْمُود (بالعبرية: תַּלְמוּד) هو النص المركزي لليهودية الحاخامية والمصدر الأوّل للشريعة الدينية اليهودية (الهلاخاه) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العبريّ (ل-م-د)، بمَعنى تعلم ودَرَس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلا من النصّ المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في المِشناه والجِماراه (الجِماراه تضمّ النقاشات الحاخامية حول المِشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وتتكوّن المِشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمّى سْداريم باللغة العبرية. هناك نُسختان من التلمود: البابلي واليروشلمي (أي تلمودَ أرض يسرائيل)، حيث يوثّقُ التلمود البابلي نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرضِ بابل، واليروشلميّ يوثِّقُ نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض يسرائيل، إلا أن التلمود البابليّ هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

لم يُكتب بعدُ، وبابُ أحداثِ المُستقبل لا زال مَفتوحاً على مِصراعيه. إنها فِكرةٌ تُمثّل فرقاً واضِحاً بين الحضارةِ اليهودية القديمة والحضارةِ الإغريقية القديمة، فالإغريقُ كانوا يؤمنون بِالقدر (أو مُصطلح مويرا في اللغة اليونانية)، بل وكانوا يؤمنون بفكرة حتميّة القدر الأعمى (أنانكي باللغة اليونانية).

وتَبِعاً للأساطير اليونانية، عندما أخبَرَت العرّافةُ بيثيا الملكَ لايوس بأنه سيكونُ له ابنٌ وأن هذا الابنَ هو الذي سيقتلهُ (أي سيقتل الملك لايوس)، حينها قام بكل ما بوسعهِ حتى يمنَع حدوث ذلك، وعندما وُلِدَ ابنه قام بصَلبهِ على صخرة كبيرة مُثبتاً قدميه بالمسامير، لكن أحدَ الرعاة الذين مرّوا من هناك رأى الطفل وأنقذ حياته، لينشأ بعد ذلك في أحضان ملك وملكة منطقة كورينثوس. ونَظراً لوجود اختلال دائمٍ في رجليه أصبحَ يُعرفُ بعدها باسم أوديبوس (والتي تعني في اللغة اليونانية صاحب الأقدام المُنتفخة).

وبقية أحداث القصة معروفة لدى الجميع، فكل ما تنبأت به العرّافة قد حَدَث بالفعل، وكلّ ما قام به الملك لايوس لمنع ما تنبأت به العَرّافة كان سبباً في حدوث ما تنبأت به، وفي اللحظة التي كُشِفَت فيها النّبوءاتُ فقد أغلِقَ باب القَدَر وجميع مُحاولات تغييره ذهبت هباءً منثوراً. في الحقيقة فإن هذه الأفكار تُشكل جوهرَ إحدى أعظم مُساهمات الحضارة الإغريقية في الحضارة البشرية: إنها **التراجيديا**.

في الوقت نفسه، وعلى الرغم من قرونٍ طويلة من المعاناة التي مرّ بها اليهود، إلا أن اللغة العبرية التي كُتِبَ بها التّناخُ لا تتضمنُ في ثناياها أي كلمة مُرادفة لمعنى التراجيديا، فالكلمة **"أسون"** في اللغة العبرية تَعني الكارثة أو البلاءَ أو المصيبة، لكنها لا تَعني بأي شكل من الأشكال التراجيديا بمفهومها الكلاسيكي، فكلمة "تراجيديا" يُقصدُ بها حدثٌ دراميّ تتمخّضُ عنهُ نتائجُ تعيسة، بحيث يدور الحدثُ حول بطل مُعيّن يكون قَدَرهُ أن يخوض تجربة سقوطٍ مُدوٍ أو حتى تجربة مُدمِّرة بفعلِ أخطاء يرتكبها هو شخصياً، أو نتيجة لصراعٍ مع قوّة عُظمى مثل القَدَر. والديانة اليهودية لا تتضمنُ كلماتٍ تصف هذا على الإطلاق، لأننا اليهودُ لا نؤمنُ بفكرة القدرِ الأعمى ولا بحتميّة القدر. إننا أحرارٌ وبإمكانِنا الاختيار دوماً، تماماً مثلما قال الكاتبُ اليهوديّ البولندي إسحق بشيڤز سنجر: "إننا لا نملك أيّ خيارٍ آخرَ سوى أن نكون أحراراً".[2]

كما أننا نادراً ما نجدُ نصوصاً أو شعائر دينية تؤمن بحتميّة القدر في الديانة اليهودية، وقلّما نجد مثل هذه الأفكارَ في المناسك والأدعية والصلوات، وهذا بالتحديد ما تؤكده أدعية وصلوات **"ونيتيانيه توكِف"** التي نُرددها في روش هَشَناه (رأس السنة اليهودية) ويَوم كيپور (يوم الغفران). وحتى أثناء ترديدنا لهذه العبارة في هاتين المُناسَبَتين: "القدرُ يُكتبُ في رأس السنة ويُغلقُ في يوم الغُفران، فيُكتبُ مَن يحيى ومن يَموت"، إلا أننا نُردِّدُ بعدها قائلين: "لكن التوبة (تشوڤا) والصلاة والصدقة من شأنها **أن تمنعَ مصائب القدر**". بالتالي لا يوجدُ قدرٌ لا يمكننا الاعتراض عليه، ولا يوجدُ حُكمٌ لا يُمكننا التخفيف من حِدّة سلبيته، وذلك عندما نُبيّن للهِ عزّ وجلّ توبتنا النصوحة وبأننا تغيّرنا قولاً وفِعلاً. وهُنا نجدُ مثالاً حيّاً من كتاب التناخِ* مِصداقاً لهذه الفكرة:

> **وفي تلكَ الأيام كان حزقيا مريضاً جداً وكان على وشك أن يُفارق الحياة، فجاءه النبيّ إشعياءُ ابنُ أموتس قائلاً له: "هذا ما يقولهُ الله عزّ وجلّ: تجهّز لأنّك موشكٌ على الموتِ، إذ لن تِشفى مما أنت فيه". حينها أدار حزقيا وجههُ صوب الحائطِ مُتضرّعاً مُبتهلاً إلى الله عزّ وجلّ، قائلاً: "تذكَر يا ربُ كيفَ سرتُ في سبيلِك بكل إيمانٍ مُخلصاً لكَ في عملي، مُكرّساً نفسي لكل ما تراهُ خيراً"، ثمّ بكى حزقيا بكاءً شديداً. وقبل أن يغادر النّبي إشعياءُ بلاطَ الملك حزقيا، جاءهُ وحيّ من الله يقولُ له:"إرجع وقُل لحزقيا، مَلِك شعبي، بأن هذا ما يقولهُ لك الله، ربّك وربّ أبيك داوود: "لقد سمِعتُ دعاءكَ ورأيتُ دموعَكَ، وسأشفيكَ".** تبعاً لما تذكره الآيات 1-5 في المقطع العشرين من سِفر الملوك الثاني، والآيات 1-5 من المقطع الثامن والثلاثين من سِفر إشعياء.

بالتّالي أخْبَرَ النبيُّ يشعياهو/إشعياء الملكَ حزقياهو/حزقيا في بداية الأمر أنه لن يَشفى من مَرَضه، لكن اللهُ عز وجلّ شافاه وعافاه منه، وعاش خمسة عشر سنة بعد مرضه، فالله عزّ وجلّ سمعَ دعاءهُ وتضرّعهُ ومنحهُ الحياة. ومن هذه القصة

*** مُلاحظة توضيحية من المترجم: التَّناخ** هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نڤيئيم، كتوڤيم"(أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهوديّ المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخُروج وسِفر اللاويين وسِفر العدد وسِفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سِفر يوشَع، وسِفر القُضاة وسِفر صموئيل الأول والثاني وسِفر المُلوك الأول والثاني وسِفر إشعياء وسِفر إرميا وسِفر حزقيال، وسِفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغوغرافا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سِفر المزامير، وسِفر الأمثال، وسِفر أيوب، وسِفر روث (راعوث)، وسِفر نشيد الإنشاد، وسِفر الجامِعة، وسِفرُ مراثي إرميا، وسِفر أستير، وسِفر دانيال، وسِفر عِزرا ونحميا، والجُزء الأخير من التَّناخ يضم أسفارِ تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سِفراً (كتاباً).

يوضّحُ لنا التلمود عِبرةً هامةً: "إياكَ أن تتوقّفَ عن الدّعاء حتى لو كان هنالك سيفٌ مُسَلطٌ على رقبتك"[3]، لهذا نتوجّه مُتضرّعين بالدّعاء إلى الله عزّ وجلّ ونحنُ غيرُ مُستسلمين للقَدَر.

في الوقت نفسه، يوجد فرقٌ شاسعٌ بين النبوءة والتنبّؤ، **فحينَ يتحقّق ما نتنبّأ به فهذا يَعني نجاحَ التّنبؤ، أما عِندما تتحقّق النّبوءة فهذا يَعني فَشِلها**، لأن النّبي يأتي إلى قومٍ مُحذّراً إياهم من مغبة اقتراف عملٍ ما، فالنبي لا يقول لأحدٍ "سوف يحدثُ كذا وكذا"، بل يأتي إلى القوم قائلاً لهم: "سوف يحدثُ كذا وكذا إن لم تُغيّروا كذا وكذا". بالتالي فإن النبيّ يُخاطبُ حُرّية الاختيار التي يتمتّع بها الإنسان، ولا يُخاطبُ حتميّة القدر.

وخلالَ حُضوريَ لإحدى مُحاضرات الباحث الكبير في شؤون الإسلام برنارد لويس، وَجّه له أحد الحضور سؤالاً حول تنبؤاته بعواقبِ إحدى السياسات الأمريكية المتعلقة بالتدخّل الخارجي في بُلدان أُخرى، أجاب برنارد إجابة رائعة قائلاً:" أنا مؤرّخ، لهذا فإن تنبّؤاتي تكونُ في سياق الماضي. أضِف إلى ذلك أنني مؤرّخٌ مُتقاعدٌ، بالتالي حين أتنبأ فإنّ تنبّؤاتي تكون قديمة الطّراز". في الحقيقة، فإن إجابته هذه تمثّل في مضمونها إجابة يهوديّة بحتة على سؤالٍ كهذا.

وإذا ما نظرنا لقدراتنا العلميّة في القرن الواحد والعشرين فإننا سنجدُ أننا نمتلك كَمّاً هائلاً من المعرفة على كافة المستويات. فإذا نظرنا للأعلى سنجدُ كوناً شاسعاً يضمّ بين ثناياه مائة مليار مجرّة، وفي كلّ مجرّة مائة مليار نجمة وجرم سماوي. وإذا نظرنا للأسفل نجدُ جسم الإنسان الذي يحتوي على مئات التريليونات من الخلايا، وفي كل خلية نسختان مُتماثلتان من الخريطة الجينية لكل إنسان، والتي تحتوي على حوالي مليار رمز، ولو جمعناها في كتبٍ على هيئة حروفٍ لشكّلت مكتبة تضم خمسةَ آلافِ كتابٍ. لكن ورغم هذا القدر الهائل من المعرفة يظلّ هناك جانبٌ واحدٌ لن نتمكن من معرفته أبداً: ماذا سيجلبُ لنا الغد؟ يقول الروائي الإنجليزي إل بي هارتلي في هذا السياق: الماضي يُشبهُ دولة أجنبية، لكن المُستقبل يُشبه دولةً لم يكتشفها أحدٌ بعد، لهذا السبب تفشلُ التنبّؤات بالعادة.

كما ويوجدُ فرق شاسعٌ بين **الطبيعة** بشكل عام وبين **طبيعةِ الإنسان** على وجه الخصوص، فالإنسانُ في حضارة بلاد الرافدين كان قادراً على التنبّؤِ بحركة الكواكِب تنبّؤاً دقيقاً، والحال نفسه في وقتنا الحالي، إذ ليس بإمكاننا التنبؤ بما سيقوم به البشر بالرغم من وجود إمكانيات هائلة لتشريحِ الدماغ البشريّ ودراسة النظام العصبي، لأن أفعال البشر دائماً ما تكون مُفاجئةً وغير متوقّعةٍ بالنسبة لنا.

والسبب وراء ذلك هو أننا أحرارٌ، فنحنُ نختارُ ونرتكبُ الأخطاء ونتعلمُ ونتغيّرُ ونكبرُ. ومن كان فاشِلاً في المدرسة قد ينال جائزة نوبل مُستقبلاً، والقائد الذي خيّبَ أمل الناس قد يُظهِرُ خلال مرحلة معينة جُرأته وحِكمته عندما تقع المآسي. وحتى رجل الأعمال الذي لا يرى سوى العملَ في حياته قد يُقرر خلال لحظةٍ معينة أن يلتفت للأخلاقيات ويُقرر مساعدة الفقراء والمحتاجين بقية حياته. إنني أعرف شخصياً عدداً من الأشخاص الناجحين في حياتهم ممن أحبَطهم مُعلموهم في المدارس وقالوا لهم بأنهم عَديمو القيمة ولن يكون لهم أي قيمة أبداً. بالتالي فإننا نُخالف التوقعات دوماً، وهذا أمر لم يُفلِح العلم في تفسيره حتى الآن، وربما لن يُفلِح في تفسيره أبداً. في الوقت نفسه نجد مَن يؤمن بأن الحُرّية هي مجرد وَهم، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فهي التي تجعلُ الإنسانَ إنساناً.

إننا أحرارٌ لأننا لسنا مُجرد "مفعولٍ به"، بل نحنُ "الفاعِلُ" إن صحّ التعبير، وردودُ أفعالنا هي محصلة للمنظور الذي ننظر من خلاله للأمور، لا للجانب المادي لتلك الأمور فقط. كما بإمكاننا الاختيار بين التفاعل مع الأحداث من عدمه، فنحنُ لدينا عقلٌ لا مُجرد دماغ، ولدينا أفكار لا مُجرد أحاسيس، كما أننا نمتلك ردّ الفِعل لكن بإمكاننا اختيار عدم الردّ. لهذا يوجد شيء ما بداخلنا لا يُمكننا اختزاله في الأسباب والنتائج المادية والملموسة فقط.

وقد تحدّث آباؤنا وأجدادنا عن هذه المسألة بمنتهى العُمق والرّصانة، موضحين بأننا أحرارٌ لأنّ اللهُ عز وجلّ حُرٌّ، لهذا خلقنا بصورته، وهذا هو المقصود من الكلمات الثلاثة التي قالها الله عزّ وجلّ لنبيّه ورسوله موشيه/موسى أثناء معجزة العليقة المُشتعلة، حيث سألَ موشيه اللهَ عن اسمه، فأجابه قائلاً: **"إهييه أشير إهييه"** (بمعنى **أكونُ مَن أكونُ).** وتُترجم هذه العبارة عادة على أنها "أنا مَن أنا"، لكن المعنى الحقيقيّ لها هو "أكونُ من أختارُ أن أكونَ"، بمعنى أن الله عزّ وجلّ هو إلهُ الحُرّيةِ الذي لا يُمكننا التنبّؤ بشؤونه. ولنلاحظ بأنّ الله عزّ وجلّ في بداية مهمّة نبيّ الله ورسوله موشيه قد أمرهُ أن يقودَ الشعبَ اليهوديّ من الاستعباد إلى الحُرّية، بالتالي أرادَ اللهُ أن يكون بنو يسرائيل شهود عيانٍ على مدى قوّة وعُنفوان الحرّية.

لهذا، لا تؤمنوا بأن المُستقبل مكتوبٌ ومُقدرٌ، لأنه ليس كذلك، فليسَ هنالك قَدَرٌ لا يُمكننا تغييرهُ، وليسَ هنالك توقّعٌ لا يُمكننا مُخالفته. كما أن السقوط والفشلَ ليس أمراً مُقدّراً علينا، والحال نفسه بالنّسبة للنجاح. إننا لا نتنبأ بالمستقبل لأننا نحنُ من نصنعُ المُستقبل من خلال اختياراتنا وقوّة إرادتنا، ومن خلال إلحاحنا وإصرارنا على البقاء على قيدِ الحياة.

وأكبرُ دليلٍ على هذا هو الشعبُ اليهودي نفسه، فأوّل مرجع ذُكر فيه بنو يسرائيل خارجَ كتاب التناخ كان عبارة عن كتاباتٍ محفورة على أحد الأعمدة الفرعونية التي يعود تاريخها إلى عام 1225 قبل الميلاد، والتي تعود إلى عهد الفرعون مرنبتاح الرابع الذي جاء بعد رمسيس الثاني، حيث حُفِرَ على هذا العمود هذه العبارة: "يسرائيلُ انتَهت، وزرعها اندثر". وهذه العبارة تتضمن معنى الاندثار والفناء، وتعبر عن المساعي الحثيثة للقضاء على اليهود ومسحهم من التاريخ الإنساني على يد أعدائهم، لكن اليهودَ صمدوا وظلّوا على قيدِ الحياة لقرابة أربعة آلاف عام. لقد ظلّوا شعباً يافعاً وقوياً رغم كل الظروف.

لهذا، عندما أراد يعقوف إخبارَ أبنائِه عمّا سيحلّ بهم مُستقبلاً، انقطع الوحي الإلهي عنهُ، فأبناؤنا يُفاجئوننا مراراً وتكراراً، تماماً كما نقوم نحنُ بمفاجأة الآخرين بأفعالنا وتصرفاتنا. إننا مخلوقونَ بصورة الله أحراراً، ونحنُ مُؤيَّدون ببركته ونِعَمِه علينا، لهذا فإننا نمتلكُ الإمكانية والقابلية لكي نُصبح عظماء لدرجة يعجزُ فيها الآخرونَ بل ونعجزُ نحنُ أنفسنا عن التنبّؤ بها.

---

1. Genesis Rabba 99:5
تفسير الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) للآية الأولى من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين

2. Attributed to L. Tiger, Optimism: The Biology of Hope (New York: Simon & Schuster, 1979)
مُقتبسٌ بطريقة مُختلفة كالتالي: "يجب علينا أن نؤمنَ بالإرادة الحُرّة، ليس لدينا أي خيارٍ آخر

3. Berakhot 10a

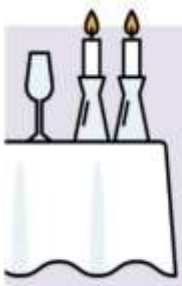

حَولَ مائِدةِ يومِ السَبتِ المُقَدَّسِ: أسئِلةٌ لِلتَّأمُلِ

1- هل لديك الرغبة في معرفة المستقبل؟ لماذا؟
2- ما مدى الحرية التي نستطيع ان نحظى بها نتيجة عدم معرفة المستقبل؟
3- ماذا يحمل لك المستقبل باعتقادك؟ وكيف يمكنك تحقيق ما يحمله لك المستقبل؟

• These questions come from this week’s Family Edition to Rabbi Sacks’ Covenant & Conversation.
For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at
https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/vayechi/on-not-predicting-the-future/

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*